

## ٤ - كاتب ياسين

ولد كاتب ياسين في السادس والعشرين من آب سنة ١٩٢٩ في إحدى مقاطعات قسنطينة ، من أصل قبلي ، ودرس في مدرسة ستيف ، ثم أوقف وسجن في السادسة عشرة من عمره على أثر المظاهرات الدامية التي جرت في الثامن من مارس سنة ١٩٤٥ ، ثم أطلق سراحه بعد عدة شهور .

وفي حياة كاتب ياسين تواريخ هامة تشكل مراحل تكوينه العقلي وظروف حياته المعاشية والمادية ، وتبدأ هذه المراحل سنة ١٩٤٦ بإصدار مجموعة شعرية بالفرنسية أسماها « نجوى » Soliloques لفتت إليه أنظار الأذباء في العاصمة الفرنسية ، وفي سنة ١٩٤٧ رحل إلى باريز ومكث فيها تسعة شهور ، وفي سنة ١٩٤٨ أقام ثانية في باريز ونشر في مجلة « مركور دي فرانس » قصيدة عنوانها « نجمة » وفي سنة ١٩٤٩ عين مراسلا لصحيفة الجزائر الجمهورية Alger Républicain ثم سافر إلى العربية السعودية والسودان المصري وآسيا الوسطى السوفيتية ونشر أثناء ذلك قصائد في باريز والجزائر . وفي سنة ١٩٥٠

توفى والده فحمل بعده أعباء أسرته ، وفى سنة ١٩٥٠ هجر  
 كاتب ياسين مهنة الصحافة واشتغل حمالاً فى ورقاً الجزائر  
 وأعقب ذلك فترة عطالة ، ثم رحل بعد ذلك إلى باريز للمرة  
 الثالثة فاشتغل هناك خادماً فى مزرعة فعاملاً زراعياً ثم عاملاً ببناء  
 ومساعداً كهربياً وغير ذلك من المهن المتواضعة . وقد  
 استطاع كاتب ياسين من سنة ١٩٥٢ إلى ١٩٥٤ أن يقف  
 بفضل إخوانه جل وقته على العمل الأدبى ، فآتم تأليف  
 روايتين ضخمتين هما « البخته المطوقة » وهى مأساة نشرت فى  
 مجلة « اسبرى » سنة ١٩٥٥ ، ونجمة ، وهى موضوع  
 دراستنا .

إن هذه الترجمة الموجزة تعكس أهم الخصائص التى تميز  
 أدب كاتب ياسين ، فقد بدأ حياته كشاعر ينظم بالفرنسية ،  
 ثم احترف الصحافة ، تلك المهنة التى نقلته فى أوساط وبلدان  
 مختلفة ثم أتى له أن يسيح فى بعض الأقطار الشرقية فاطلع  
 على أنماط من الحياة والنظم وأحوال الشعوب مما وسع مداركه  
 وزاده شعوراً بالحرية وتمسكاً بها ، زد على ذلك مزاولته المهن  
 المتواضعة واتصاله بالبيئات الشعبية والأوساط العمالية الكادحة  
 مما قوى روحه الثورية وزاد فى خبرته وتجاربه . فحياته إذن

قسمان علوى وسفلى عالم الشعر والخيال والرمز وعالم المادة والحقيقة والواقع ، إن هذه الاثنيينية تنعكس في روايته الكبرى « نجمة » فهي تجمع بين صفتين متلازمتين الواقعية والرمزية ، وهذا ما أضفى عليها طابعاً فريداً لا نجد مثيله عند زملائه من كتاب الجزائر مما جعله أقرب في الناحية الروائية الفنية إلى الكتاب الأوربيين كمارسيل بروست وكافكا وفواكيزير الأميركي ، ولعل هذا الأخير أكثرهم تأثيراً في أدب كاتب ياسين .

ولا أدل على غرابة رواية نجمة من تلك المقدمة التي وضعها الناشرون يلفتون بها أنظار القراء إلى ما قد يخفى عليهم من أجواء الرواية ومراميها وأهدافها « فهي عالم غريب وغامض يلاقي القارئ فيه صعوبة كبيرة لجمع أطراف الرواية وتأليفها » فهي عبارة عن لوحات متعددة تناسب أمام القارئ فتقله بخفة وسرعة عبر مشاهد وحوادث في إطار متمدد مائع ، فالشخصيات متداخلة ، والمفاجآت مستمرة ، وقد تشغلك اللوحات والصور الحافظة واللمحات التحليلية عن تتبع الرواية وتفسد عليك التسلسل الذي ألفته في الفن الروائي عادة ، ففي كل مرحلة يشعر القارئ بنوع من الانزعاج ويحاول جاهداً معرفة النقطة الأساسية التي تتفرع مأساة الأشخاص ، فالقصة

العامّة المتطورة معدومة وكذلك التاريخ والتوسيع الإنشائي فهما غير محدودين في الزمان والمكان ولا يسيران في توغلهما وتسلسلهما حسب الطريقة الكلاسيكية والأصول الروائية المتبعة فإن الحوادث تجري وتتحول متحدية مقاييس الزمان والمكان ، فكان أبطال الرواية كائنات لازمنية مجردة من الثقل الأرضي ، فكان كاتب ياسين يزدرى الزمن ومفعوله التهديمي وسيره المطرد فهو بين وقت وآخر يجمد الزمن في لحظة أبدية ليعطيك بداية أو نهاية حادثة أو فاجعة فهو قد « بنى عالماً كوكبياً أقام في وسطه شمساً هي « نجمة » يدور حولها عدد من الكواكب الكبيرة والصغيرة لكل منها نجمة الخاص ، وائن كانت الشمس ثابتة ، وكانت تلتصق دائماً بالكثافة نفسها فنحن لا نعرفها إلا بانعكاساتها على الكواكب التي تحيط بها والتي تبعتها حركتها أو تتمر بها من نورها ، وكذلك الأمر في شأن النجوم ، ولما كانت جميع هذه الكواكب سجيئة الحركة نفسها التي تجعلها حاضرة ينتج عن ذلك اختلاط تام بين الماضي والحاضر والمستقبل ، فالقصة تبدأ في لحظة معينة ثم تتطور وتقف وتعود إلى النقطة الأولى ، ثم تتخذ وجهة أخرى تسلكها رداً من الزمن قبل أن تعود إلى نقطة الانطلاق وهكذا

دواليك فنحن داخل حركة دائرية تسير فيها الرواية نهج الطي لا النشر لأن الانتقال من حالة إلى أخرى تجرى حسب انزلاق التكر عبر خط لوحي دائمى . ولا تكفى صورة الحجر الملقى فى الماء لإيضاح الحركة فبدلاً من أن تشمل التوججات مساحة ما فإنها هنا تضغط حجماً من الزمان والمكان ندرك جميع نقاطه فى نهاية الرواية<sup>(١)</sup> .

وخلاصة الرواية أنه كان يقطن فى مدينة بونة أربعة أصدقاء هم : رشيد والأخضر ومراد ومصطفى ، وكانوا قد تلقوا العلم معاً فى المدرسة وقد اشتركوا يومئذ فى النضال الثورى سنة ١٩٤٥ فطردوا من مدارسهم وعذبوا وسجنوا ثم فرقتهم ظروف الحياة بعد خروجهم من السجن وقاموا بمغامرات كثيرة إلى أن جمعهم الصدف فى ورشة عمالية يشرف عليها مدير فرنسى كان يكره العرب ويضطهدهم ويتأذى بتعديبهم . وكان هؤلاء الشبان الأربعة يعشقون فتاة تدعى « نجمة » زوجة رجل اسمه كامل ، ويظل أصل نجمة مجهولاً إلى أن يتوصل الأربعة تدريجياً إلى اكتشافه ومعرفة الحقيقة ، فقد أسلمت نجمة وهى طفلة إلى امرأة تدعى لالافظمة فربتها حتى بلغت سن الشباب ،

(١) المقدمة ومقال الأستاذ نادو فى صحيفة « فرانس اويسوفاتور »

ونجمة في الحقيقة بنت امرأة فرنسية وأب جزائري حملت بها أمها في ليلة قضتها مع مراد ومصطفى في إحدى المغاور حيث قاداها هناك ، وعند الصباح وجد زوج الفرنسية -مقتولا في المغارة . والقاتل المفروض هو والد نجمة السي مختار .

وهنا يلزم رشيد السي مختار قاتل والده حبا بجلاء السر واكتشاف حقيقة نجمة التي قد تكون أخته ، وقد يكون السي مختار أباهما ، كما أن السي مختار هو أب كامل زوج نجمة ، ولم يستطع منع هذا الزواج السفاحي خشية اكتشاف سر ولادتها . وفي رحلة إلى الحجاز أطلع السي مختار رشيداً على سر نجمة ، واتفق الاثنان على خطفها من زوجها - أي من أخيها - وإرجاعها إلى قريتها الجبلية حيث تعيش بقايا قبيلة « قبلوت » التي دمرها الفتح الفرنسي وشرد أهلها ، وهكذا عادت نجمة على الرغم من مغامراتها ونسبها المشوب بالدم الفرنسي إلى منشأها فتغلب بذلك داعي الأرض ونداء العرق على جميع الملايسات والحوادث والاعتبارات الاجتماعية والعرقية .

ولكى تفهم الرواية تمام الفهم من وراء الخيال الروائي ، والحاجب اللغوي المستعار يجب أن تقرأ على ضوء « الفكرة الجزائرية » والوجود الجزائري ، فهي قضية شعب مظلوم

ولكنه حاضر ، وفكرة وطن منفقود ولكنه مائل في أذهان بنييه  
 « تحمله إليهم نسمة وحيدة تهب على البلاد ساقطها إليهم الغاية  
 والصحراء والبحر » .

وتكمن فكرة الوجود الجزائري في هذه الأرض التي يعيش  
 عليها الشعب الجزائري وفي الخيرات التي تكمن في أحشائها  
 والتي يمعن المستعمر فيها نهياً في حين حرم أهل البلاد من  
 القوت الضروري والحقوق الإنسانية البدائية .

وتتجلى فكرة الوجود الجزائري في هذه الصور الاستعمارية  
 القائمة عن الحياة الجزائرية في الحقول والمزارع والمدن وورشات  
 العمال والسجون ودور القضاء ، وتتجلى أيضاً في هذا الحقد  
 الذي يكنه أهل البلاد للمستعمر وفي الازدراء الذي يكنه المستعمر  
 لأهل البلاد ، وتشتد البغضاء بين الحاكم والمحكوم بقدر ارتفاع  
 الوعي القومي وانتشاره مما جعل أحد المتظاهرين يصيح في  
 بني قومه :

إلام الانتظار ، إن القرية لنا

أنتم الأغنياء تنامون على سرر الفرنسيين

وتعملون في مستودعاتهم

أما نحن فلدينا أردب من الشعير ودوابنا تأكل كل شيء

إن إخواننا في ستييف قد ثاروا

وما نصح العقلاء المتظاهرين بالتزام السكون والاعتدال  
والاعتماد على الرؤساء لأن الشعب عاجز عن مقاومة الدبابات  
صاح المظالمون :

لبدلنا الرؤساء على الطريق

لقد كفانا نوماً ، لنهاجم

قلت له وحتى : إني ذاهب بلحلب القمح

أيتها الأيدي الحمراء ! كفاك نوماً .

وتتجلى أيضاً في قول السى مختار مخاطباً رشيد : « يجب

أن تفكر بمصير البلاد التي أتينا منها ، تلك البلاد التي ليست

فرنسية ولا يرأسها باي أو سلطان . لعلك تفكر بالجزائر

المحكومة وماضيها المبهم ، يجب أن تعلم بأننا لسنا بعد أمة ،

ولسنا سوى قبائل مبعثرة ، ولم يكن إعزاز القبيلة رجوعاً لا وراء

فهي الرباط الوحيد الذي بقي لنا للشمع والتلاقي حتى ولو

كنا نأمل أحسن من هذا . »

إن هذه القبائل المبعثرة المشردة التي هي صورة للجزائر

المفككة الأوصال تجسدها في نظر كاتب ياسين قبيلة

« قبلوت » التي غزاها الفرنسيون إبان الفتح وشردوا أهلها ،

ولكن الروح الجزائرية القائمة على التمسك بالأرض وحب الحرية كانت تحول دون فناء القبيلة إذ ما لبثت أن امت صلاتها وقوت أواصر القربى والعصبية والتزاوج واعتنقت أسماء جديدة لتنجو من التنكيل بعد « أن تركت حفنة من الشيوخ والأرامل واليتامى على الأرض الملوثة لتخلد أثرها وذكرى القبيلة المصروعة » . . . وهكذا ترى أن القبيلة الصغيرة على صورة أمها الجزائر تنشد البقاء وتقاوم الغزاة مقاومة عنيفة حتى إذا حلوا أرضها غزتهم بدورها وتمثلتهم على مر الزمن .

إن فكرة الوحدة والنضال لها جذورها في الماضي تعود إلى زمن عبد القادر الجزائري وهو « الظل الوحيد الذى كان بمقدوره أن يمتد على الجزائر بأسرها ، فهو رجل السيف والقلم ، والرئيس الوحيد الذى يقدر أن يوحد كلمة القبائل ويرفعها إلى مصاف أمة ، لولا أن أفسد عليه الفرنسيون أمره وحالوا دون نضاله الموجه ضد الأتراك ، ولكن الغزو الفرنسى كان شرا ضروريا ، وتطعيماً مؤلماً يجلب بشائر التقدم إلى شجرة الشعب الجزائرى التى آذاتها ضربات الفأس » . فإن الفرنسيين شأنهم فى ذلك شأن الرومان والأتراك فلم يكن لهم من بد إلا يبشوا بجذورهم ، تلك الجذور التى هى رهائن الوطن الذى يتمخض ،

والذى يطمعون بخيراته ، والفرنسيون إذ يحاولون منع ولادة هذا الوطن إنما مصيرهم إلى الخذلان ، إذ لا بد لهذا الوطن أن يتحرر بدمونهم ولا يد أن يظردوا منه ، وكما أن الجزائر ابتلعت الغزاة وتمثلتهم فإن الأرض العطشى ذاتها ستمتص دماء أمثالهم لتخلق منها جزائر فتية قوية تدب فيها الحياة الحرة المنطلقة من كل قيد.

\* \* \*

من مزايا أدباء الجزائر أنهم أبناء الأرض التي أنبتتهم ، فهو شهود حياتها ومآسيها ، بل هم المرآة الأمانة التي تنعكس عليها الحياة الجزائرية في سموها وانحطاطها وجمالها وقبحها ، ولذا حفلت رواية « نجمة » - إلى جانب الناحية الرمزية التي اقتضتها اصطلاحات الفن الروائي - بالصور الواقعية والملاحظات النفسية والصور الاجتماعية واللوحات التحليلية الموفقة التي تشهد للمؤلف بعمق نظرتة للحياة وغنى تجاربه عن الأشياء والناس . قال يصف يقظة القرية وهوض العمال : « بدأ منظر القرية بعد أن نظفها الليل كثيباً ، مبتدلاً كمنظر مهرج مسح عن وجهه أصبغة التنكر ، وكان الفجر رطباً رمادياً لا تسمع فيه سوى خطوات متناقلة ، وسعال متباعد ، وسلام يلقى فيرن صداه ، تميزه هذه الاستجابة المنتزعة التي تغلب على الإنسان

عند صحوه من النوم . ولم يستجب المارة في مثل هذه الساعة إلى ردة عادة غسل الوجه فقد تجمعوا في « برانسهم » يظرقون بعصبيهم بانتظام بشكل يخالظه الغيظ والحمول ، فيدتحاون الواحد تلو الآخر إلى خماره وحيدة حيث يستعيدون قواهم منذ الجرعات الأولى : إن القهوة تطرد التعب والبرد .

إن السماء لا تزال مكفهرة كالأمس .

قال أحد الكناسين وهو منحن نصفين :

مع أن الوقت ربيع !

فهز الفلاحون رؤوسهم ، وما لبثت الخماره أن فرغت من

الرجال بمثل السرعة التي امتلأت بهم . الكناسون والفلاحون

العمال يتتابعون جميعاً على الطريق المستقيمة فأصبح سعالهم

أقل يبوسة ، وضربات العصي أخف وطأة كأن كل واحد

منهم قد استعاد ثقته بنفسه حازماً أمره لنهاره كله !

وقال يصف سجون الجزائر حيث يلتقى الموقوفون أنواع

التعذيب : « تقدم الأخضر تحت وطأة ضربات الشرطة ،

فصرح بهويته ونسبه وغير ذلك من المعلومات الشخصية .

وظل رجال الشرطة يضربون .

وظل الضابط يقرأ ورقته .

— إذن إن السيد تلميذ ؟

— فشبهق الأخضر قائلاً : نعم تلميذ !

— فعلق الشرطى سوطه على زناره ، وتناول حبلاً رطباً من على حافة حوض الماء ، وامتنع الشرطيان الآخران عن ركل الأخضر ، وأخفى هذا رأسه بين ذراعيه على محاذاة الأرض .  
لقد هياً نفسه للتعذيب ، فهو لن ينكر اشتراكه بالمظاهرة ، ولن يبوح بكلمة عن المسدس الذى طمره فى الساقية ، وقد وطن نفسه — كوسيلة للنجاة — إذا اشتد عليه الألم على أن يبوح بأسماء طلاب من أنصار الفرنسيين الذين سيثبت التحقيق فيما بعد براءتهم .

لم يكن الأخضر يشعر بكل هذا إلا فى شكله العام المبهم ، فهو لم يعد يشعر برأسه ، وظلت بقية جسمه شبه سليمة ، وأخذ ألم بعيد وحاد يتوضع شيئاً فشيئاً فى خاصرتيه وركبتيه وكعبيه وقفص صدره وفكيه .

ثم تركهم الأخضر يعصبون يديه ورجليه ، ثم ثبت الشرطيان بين الحبلين دفعة خشبية طويلة من شأنها تثبيت السجين ، ثم حمل وقذف فى الحوض . لقد خدشت كتفه اليسرى ، فوجد فى جموده عن الحركة وسيلة لإبقاء نصف

جسمة غير مغمور بالماء في شكل زاوية قائمة ، وكانت الدقة قد هضرت ذقنه ، وكان الأخضر في انتفاضاته ليبرز رأسه رأسه يصل أحياناً إلى مستوى رجال الشرطة .  
أغمض الأخضر عينيه .

فشعر بشيء بارد يضغط على شفثيه عرف عند المذاق أنهم وضعوا له حجراً كبيراً يصل حتى البلعوم ليمنعوه من إطباق فمه ، ثم وضعوا له شيئاً آخر استطاع أيضاً تحديد ماهيته : قطعة من أنبوب معدني يستعمل للسقي .

سالت المياه !

فلم يعد يستطيع الاحتمال .  
لم يعد باستطاعته أن يشرب أكثر مما شرب .  
وشعر كأن أعصابه جميعاً تتلوى ، وأن جرعة مثلجة تقلب له أحشاءه  
الماء يسيل .

وكان الضابط يزيد في إسالة الماء تدريجياً .

وكان الأخضر يزداد انتفاضاً .

— ياله من متوحش ، إنه يريد أن يقتل نفسه .

— هيا ! تكلم ، إنك شاب ، وسيطلق سراحك .

— من هم رؤسائكم ؟

— هيا يا ( . . . ) هل تريد أن تفضس ؟

لقد عزم الأخضر على البوح ، وأشار بإيقاف سيلان الماء !

— رؤسائنا ؟ ليس لنا رؤساء ، نعم ، نعم ، سأتكلم ،

انزعوا أولا الأنبوب . إن رؤساءنا :

— إنه يسخر بنا ابن المومس !

— وانهاالت عليه الضربات .

— إن سوط الضابط لم تعد تكنى .

— وتناول الشرطيون حبلا رطبة أخرى .

وانهاالوا على إخص القدمين كأنهم حطابون في غابة .

وكان الأخضر يسمع هتت الشرطيين .

وعرف لماذا استهدف الشرطيون إخص القدمين .

فتنى ركبتيه وغطس . . .

وهذه صورة عن القضاء الاستعماري : « قال مزيان :

ذهبت لاستشارة محامين كبيرين في قسطنطينة ، فبعت آخر

قطعة أرض لأدفع لهما أجرهما ، بعد أن صرفت ما ادخرته

وأى على الدعوى وكانت الحكاية عبارة عن خطب ، وبعد

ثلاث ساعات كاملة أى منذ أن بدأ المحامى « كوني »

بالكلام ، أطرق القضاة وتهامسوا فيما بينهم ، وكنت عند كل مقطع أضع على طاولة الدفاع ورقة من فئة المائة فرنك ، وحاول الحراس إخراجه من القاعة ، وكان الترجمان ينقل بأمانة الكلمات المنتزعة من فم والدي ، وكان تأثير الحضور بادياً ، وبعد المرافعة ترك القضاة القاعة بخطى وثيدة وكنت أجد في وجوههم سماء الملائكة بأثوابهم وقلائسهم الحبيثة . وكان المحامي « كوني » يبتسم لوالدي علامة البراعة ، ثم عاد القضاة ، وكان الحكم . . . بالإعدام .

إن الرواية كتبت بمهارة فائقة ، ففي خلال مائتين وخمسين صفحة استطاع المؤلف أن يستأثر باهتمام القارئ وذلك على الرغم من تشعب الحوادث وتعقيد الأسلوب الروائي . حقا إن كاتب ياسين . . . كاتب من الطراز العالى .